من ذكريات رمضان.. بين الشك واليقين..

د. سيد توفل

أكتوبر

تحفل هذه الأيام بتطورات دولية وإقليمية واسعة المدى.. وكان المعنى السياسى لحفلة الهوكى القريبة فى طوكيو مكملا للمعنى السياسى لحفلة تيتو السابقة فى بلجراد.. ففى بلجراد ظهر التباعد الأمريكى – الأوروبى الغربى. وحضر برجينيف ولم يحضر كارتر. كما حضر ديستان وشميدت وتاتشر. وساءهم – حرصا على الوفاق الدولى – غياب الرئيس الأمريكى.. وفى طوكيو ظهر الحلف الجديد: الأمريكى الصينى اليابانى. وحضر كارتر ولم يحضر برجينيف. وتم اللقاء التاريخى بين الرئيس الأمريكى والرئيس الصينى هواكوفنج. وظهر التخطيط المشترك فى معركة تايلاند مثلما ظهر قبلا فى معركة أفغانستان. وأصبحت دعوة الطرق العسكرى الأمريكى تسود الولايات المتحدة.. والتزم بها كذلك الجمهوريون بزعامة ريجان. متخلين عن التزامهم التقليدى بالحفاظ على التوازن العسكرى بين القوتين الكبريين.. ومن ناحية أخرى مضى التقارب السوفيتى الهندى فى سبيله منذ زيارة إنديرا غاندى..

محمد عبده
مأساة رسالة التوحيد

محمد محمود باشا
تنكر الأحرار الدستوريون على زعامته

كميل شمعون
قضى الكتائبيون على حياته

والصراع بين العراق من ناحية، والتحالف الإيرانى السورى الفلسطينى من ناحية أخرى، تفاقم معاركه فى إيران والعراق ولبنان والكويت والبحرين وغيرها، ويهدد بلاد الخليج العربية أخطر التهديد.

ودور مصر القيادى، فى المنطقة وفى العالم، يزداد قوة وتوثقا. وقد ظهر فى برنامج الحزب الجمهورى الانتخابى. وفى رحلة المرشح المستقل جون انديرسون إلى القاهرة. وفى الصراع الداخلى الإسرائيلى ضد عنت حكومة بيجين وجمودها. وفى المعركة الناشبة بين بيجين ووزير خارجيته بريطانيا كارنجتون. وقد انفجرت أسباب الفضيحة والخلاف مع مصر فى الاجتماعات العربية والإسلامية الأخيرة بعمان.

لكن الحقيقة الكبرى هى أن المجتمعين وقفوا فى الصف المصرى: صف السلام والتنمية. وعزلوا عملاء الاتحاد السوفيتى فى سورية وأثم الخونة وليبيا وبين الفلسطينيين. وعارضوا المقترحات السورية الفلسطينية المشتركة. كما أوكلت هذه الاجتماعات معارك الحلف السوفيتى السورى ضد البلاد العربية. وفى مقدمتها السعودية والأردن والمغرب.

وتصاعدت النكبات فى لبنان. واكتسح الكتائبيون الساحة المسيحية. وقضوا على نفوذ كميل شمعون وعلى جماعته السياسية بالوطنيين الأحرار. وتراءت فى الأفق اللبنانى المظلم الغرب بخاطر التأسيس الرسمى للدولة المسيحية فى لبنان. كما تضاءلت الخاطر والظلالات المهددة للكويت والبحرين وسائر منطقة الخليج العربية.

■ وحديث البناء الذاتى المصرى، وهو الدعامة الأساسية للأمن العربى المشترك، يسبق كل حديث.. وقد وعدت فيه باستكمال موضوعين هما موضوع الوحدة الوطنية والانفتاح السياسى. وموضوع الواجبات الملقاة على عاتق السلطة الرابعة: الصحافة فى عهدها المستقل الجديد.

وكل من هذه الموضوعات جميعا يشد الكاتب السياسى إليه، ويستأثر بعنايته.. لكن بعض الأصدقاء الأعزاء طلبوا أن أحدثهم فى خفة عن ذكرياتى فى رمضان.. ولم يكن مناص من إجابة داعيهم، مراعاة لمقتضى حال الصيام، ومن حق الصائم أن يتأمل الماضى، ويعد نهجا أفضل للمستقبل.. وإنى لأجيب داعيهم إلى ذكريات رمضان.. أما الخفة فمردوك أمرها للقراء ومشاعرهم.. فالكتاب هو الكاتب، والمقال هو القائل. ولا أدرى إذا كنت خفيفا أو ثقيلا.. على أن الخفة والثقل ليس من معول كبير عليهما فى مجال السياسة. إنما المعول الأول على المكسب والفائدة.

ومنذ خمسين عاما تنكر الأحرار الدستوريون على زعيمهم محمد محمود فى هذا الشأن.. وذلك حين عرضوا اسم مهندس شاب لامع ليكون وزيرا للمواصلات. فقال محمد محمود إنى لا أستخف فلانا!! وكان جوابهم على قوله هو أن خفة الثقل تأتى فى الصداقة والمصاهرة، ولا تأتى فى السياسة ولا الشئون العامة.. ونزل على رأيهم.. ومهما يكن من أمر فلرمضان عندى ذكريات أية ذكريات.

وقد نشأت فى أسرة وبقية مواطنيها بإحدى قرى مركز المنصورة.. ومع أن أحوالى قد انصرفوا عن العادة، إلا أنها يؤديها العامة من أهل الريف. فقد ظهر استغراق فيها منذ طفولتى، استغراقا يدفعنى إلى الجد والعمل.. وكان لى فى والدى، الذى حصنى بقربه، أسوة حسنة.. وأذكر أنى أقبلت على الصلاة أؤدى فروضها ونوافلها فى السابعة من عمرى.. وأنى بدأت الصوم كذلك فى السنة ذاتها.. بل أذكر أنى حين بلغت العاشرة كنت أحفظ للقرآن الكريم أو عشرين جزءا من أجزائه الثلاثين.. وكنت أصلى المغرب فى المسجد القريب من دارنا، ثم أستمر فى العبادة لا أبرحه حتى أصلى العشاء.. وأعود إلى الدار لأتعشى وأذاكر بعض الوقت.. ثم أنام لأستيقظ قبل الفجر، وأؤدى صلاته فى المسجد مع المصلين من أهل قريتى: بعض التجار والعمال والفلاحين البكريين.. بل لقد شغفت برسول الله ﷺ، الذى طالما استمعت لوالدى يتلو دلائل حياته ومشاركته الفلاحة.. والإعداد شغفى بالرسول الكريم حين رأيته فى المنام.. وأخذت أفاخر بذلك أقرانى: الصغار، وأبقى: الكبار.

وكان والدى قد سماني «السيد»، تيمنا بولى الله أحمد البدوى، الذى تطلق عليه نحن الريفيين اسم السيد البدوى. وطالما قص الوالد علىّ أفاضيض كرامته وطوله؟ وطالما زرته معه، وعدت من كل زيارة بقوة جديدة من السعادة والرضا، ومن الأمل الداعى إلى المزيد من العمل.. وفى الثانية عشرة رأيت فى المنام، أحمد البدوى، فى صورة شيخ

ليبيا قادمون .. تلازم سواعلى هتلر

تحل قصير القامة وصاح الجبين : يحلمون ويرقصون بين يديه .. واستشرت أعظم الخير بهذه الرؤيا ! !

وكان أول صوم فى حين وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فى نهاية العقد الثانى لهذا القرن . وكان صوم اليقين حق . أسعد بالخروج والتطلع واحتمالها طوال النهار . وأسعد أكثر بالإفطار وبالسحور مع الكبار . مثلما بذلك مشفوق على أن أكون مساويا لهم فى الاحتمال . وكانت العالم الاجتماعية أجمل ما تكون فى تلك الأيام . ففى عدد مذكور من منازل القرية يجلس القلب فى انتظرة . يتلو القرآن من بعد صلاة العشاء حتى موعد السحور . ويتنقل أهلها بين المناظر طوال هذه الفترة تأكيدا للروابط الوثقى . وتبادلا فى شئونهم المشتركة . وحملا ما ينجم من متاعب بينهم . وفى أعوام الصوم الأولى غرست تنظرتنا الميول السياسية فى نفسى .

■ لقد عانى المصريون فى الحرب العالمية الأولى أعظم المعاناة . وحين وضعت الحرب أوزارها كانت أنباؤها الثقيلة تملأ أسماعنا – نحن الأطفال – ومناظرها البشعة تملأ أبصارنا . والمصريون فى الريف والمدينة من أشد الشعوب ولعا بالسياسة وأحاديثها . لقد أخذوا يقصون علينا فى تفصيل المآسى البريطانية ومشقات الحياة طوال السنوات الأربع للحرب . اشتد العنف فى تطبيق الأحكام العرفية البريطانية على مصر منذ أعلنت الجهاد عليها فى مطلع الحرب . وخضع للاعتقال والسجن كل مصرى يثبت ميله ضد بريطانيا . واستولت السلطات البريطانية على غلات المصريين ودوابهم من الخيل والبغال والحمير . وسخرتها بلا مقابل لخدمة الجهود الحربى الأجنبى . كما سخرت الفلاحين والعمال المصريين لخدمة أعمال القتال والمساندة الحربية .

وهكذا حين كنت فى سنوات صباى الأولى حيث اليقين الذى أخذت تنازعنى أسباب الشك الوطنى . إن ممتلكات الفلاحين من أهل قريتنا لم يعد أى منها إلى القرية بعد الحرب . ولم يلق أصحابها أى تعويض عنها . والفلاحون الأشقاء الذين سخروا لخدمة الحرب البريطانية ضد الألمان والعثمانيين قد أخذت أنباء القتل والمفقودين منهم تترى على القرية . كما أخذ العاجزون والمشوهون وفاقدو الأطراف يعودون إليها تباعا . ويغرسون فى نفوس الشيوخ والنساء والأطفال المزيد من النقمة والثورة على الاستعمار البريطانى . كما أخذت أنباء تأليف الوفد المصرى والثورة الكبرى الاجتماعية تشغل كل مصرى وتشد تجميع حواسه ومشاعره . وعلى طول أحد عشر عاما توسمت فى نفوسنا وقلوبنا معانى الإيمان الدينى

زعيم ثورة الشعوب العسكرى الأمريكى

والحماسة الوطنية

لكن الإنسان عالم صغير . وهو مثل العالم الكبير حافل بالتحولات والتطورات . ولهذا لم أكد أصل التاسعة عشرة من عمرى . وأبدأ التعليم الجامعى . حتى واجهت شهر رمضان آخر مختلفا كل الاختلاف عن رمضانات السابقة .

فحين دخلت الجامعة . إبان الضائقة الاقتصادية الخانقة فى مصر وفى العالم كله . واجهتنى أحاديث التحرر القلق والشك والريبة والإلحاد . وهى أحاديث كانت تسود مجتمعنا . وخاصة الجامعى . فى مطلع الثلاثينات لهذا القرن . ولم يكن مناص من تأثرى بها وخاصة فى تلك السن التى يتحول فيها الناشىء من مرحلة الصبا إلى الشباب وبدءا عهد الرجولة بتكاليفها وأعبائها .

وظلت تسعة أشهر من عام ١٩٣١ أعانى الضياع وفقدان العقيدة . أقوم فى بداية الشك الرهيب . وأقوم بأوزار الحيرة القلقة . وأبكى سعادة الإيمان واليقين الذاهبة . وجاء رمضان الشهر العاشر فى هذه المحنة . فلم أصل ولم أصم . بل تحديت المصلين الصائمين . وأخذت أدخن فى الطرقات . ولم أكن أدخن من قبل . بل بلغ التحدى أقصى المدى حين مررت فى ميدان عابدين . مقر الحكم الإسلامى . أدخن وأعلن إفطارى . لكن الشطط المعاوك هو دائما طليعة السلام .

وكانت لى صلة وثيقة بأستاذ الفلسفة الإسلامية المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا . وقد أصبح من بعد وزير الأوقاف ثم شيخ الجامع الأزهر الإمام الأكبر للمسلمين . ورزقه فى ليلة الحادى عشر من رمضان بمنزله بمنشية البكرى . بعد أن أكرمه الملك فاروق أسرة عبد الرازق على إخلاء دارها الشهيرة المطلة على قصر عابدين . وطالعت أستاذى بأسباب الشك والريبة التى ترين على قلبى وعقلى معا . وحدثنى الفيلسوف الكبير حديث المؤمن الصادق والعالم الحجة . وانتهج سبيل مغاوط فى توجيه الأسئلة وصولا إلى الاقتناع بالحقيقة . وسلمنى نسخة من رسالة التوحيد لأستاذه المغفور له الإمام محمد عبده . وطلب أن أقرأها . وأن أعود بعد سبعة أيام للمناقشة فى موضوعاتها . وبعد هذا اللقاء بدأت مرحلة العودة إلى سعادة الإيمان واليقين . وقرأت الرسالة واستوعبتها فى مدى يومين . وتمت العودة إلى أستاذى فى اليوم الثالث لأطالعه بما هدانى الله إليه بفضله سبحانه وبفضل مصطفى عبد الرازق وبعبد عبده معا . وبدأت الصيام والصلاة على قواعد أفضل وأصدق . ولم أكتف فى الفترة الباقية . الشك أولى مراتب اليقين . كما تأكد لى رأى بعض الفقهاء المسلمين أن المؤمن . بغير نظر ولا تأمل يؤديان إلى توثيق الإيمان . يعتبر واهن العقيدة .

وفى اليوم السابع ذهبت إلى دار المغفور له الإمام مصطفى عبد الرازق قبل الإفطار حسبما تعود لى . ووجدت جمعا من مريديه . شبابا ورشوخا . وشربنا الشاى حين أذن المغرب . وأدينا الصلاة . ثم جلسنا على مائدته نتناول طعاما شهيا ونستمع إلى حديث أشهى . كله الإيمان والعمل والثقة بالمستقبل الفردى والوطنى . وأدرك ما كان من أمرى بغير حديث منى ولا منه . ولم يزد على أن حمدت الله على من العودة إلى سبيل الرشاد حين كنت أوشك منصرفا من داره . وخلال تلك الفترة تحدد الإيمان بمفاهيمه فى رأيى . فالعبادات ليست مقصودة لذاتها . إنما هى السبيل إلى استقامة المعاملات . والإيمان الحق هو صدق القول والإخلاص فى العمل والتضامن الاجتماعى . ومن المنكر فهم الذين على أنه تسابيح وأذكار . أو زهد وكسل . أو تزمت وضيق أفق . أو انعزال بأية وساطة بين العبد وربه .

واجتزت الامتحان الجامعى فى ذلك العام بتفوق . مثلما اجتزت مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين . وعدت إلى الله بعد تفكير ونظر عميقين . أعبده سبحانه فى صدق وإخلاص . وأرى العمل المستقيم المثمر جوهر العبادة وأرفع مراتبها . وأعوض ما فاتنى من صلاة وصوم فى مرحلة الضياع . وألتزم بها طوال حياتى . لا يفوتنى فرض فى إقامتى . ولا فى أسفارى الكثيرة غربا وشرقا . ولا تطمئن نفسى . أبدا كنت . إذا فاتنى أداء صلاة فى وقتها . بل أشعر بالضيق والحسرة إذا لم أصل الضحى أو الفجر أو قبل طلوع الشمس على الأكثر . أو لم أقرأ حزبا من القرآن الكريم فى تمهل واستبصار كل صباح .

بل إنى أشعر بتيسير أمورى وتعبيد طرقى . كلما أديت العبادات على وجهها الصحيح . كما أشعر بأنى أواجه المشاكل والمتاعب ولا أحقق مقصدا كلما حال لزوم أو عمل دون هذا الأداء .

وعادت إلى اليقين الأحلام السعيدة التى افتقدتها فى مرحلة الارتياب . والحق أن قصتى عجيبة مع الأحلام فهى عندى عالم آخر يسعدنى ويشقينى بالليل . ويخافى كل الخافاة مسلكى فى عالم النهار . حيث تحكمنى مبادىء علم النفس وسائر العلوم المعاصرة . وأمارس الأمور بأسلوب الواقع العملى .

ومن غرائب الأحلام مارأيته فى رمضان (١٩٣٢) . وكنت حينذاك لا أعرف غير محيط الجامعة العلمى . ولا صلة لى من قريب أو بعيد برجال الحكم والسياسة . فقد رأيت فى المنام أنى أعمل مديرا لمكتب وزير المعارف (التربية) الدكتور محمد بهى الدين بركات . ولم أكن أعرف الرجل ولم أره من قبل ذلك . لكن هذا الحلم تحقق مع الدكتور محمد حسين هيكل بعد ستة أعوام . وقد عرفته صدفة على أثر تخرجى . وعملت معه طوال عشرين عاما فى إخراج كتبه التى اعتز بها الدين . وأخرجت الكثيرين من ظلمات الشك إلى نور اليقين . وهى : حياة محمد . والصديق أبو بكر . والفاروق عمر . فقد خالطت هذه الآثار الخالدة العقل بأسلوب علمى أمين . وجاءت فى مرحلة عز فيها هذا الأسلوب فى مجال الدين . وكان الدكتور هيكل يهدأ بين الذين مسنى لا محا . كما كان بهى الدين بركات صديقه وقد عرفته عن طريقه .

لكن أحاديث رمضان وذكرياته لم تنته .

وإلى الأسبوع المقبل إن شاء الله .